حياة الأخوين

١ — سعيد الشرتوني

ويراعةٍ فُجعت بفقد وحيدها　　كالأُم قد فُجعت بفقدِ وحيدِ
كلُّ المصائبِ هيّناتٌ عندَها　　إلاَّ المصيبةُ بالإمام سعيدِ

في التاسع عشر من شهر آب الفائت فجعت اللغة العربية بعلَمٍ من أعلامها العالية ، الامام الكبير المغفور له الشيخ سعيد الخوري الشرتوني ، رافع لواء الفصاحة والبيان في الربوع السورية ، ومعزّز فن التأليف بما انشأه من الكتب الجمة الغزيرة الفوائد على المدارس العلمية

وهو أحد الافراد الذين تجود بهم فلتات الزمان حيناً بعد حين ، فيحدثون انقلاباً في ما تركه الأولون للآخرين

« حياتهُ » — وُلد صاحب الترجمة في بلدة شرتون نحو سنة ١٨٤٧ ؛ وأبوه عبد الله بن ميخائيل بن الياس ابن الخوري شاهين الرامي . كان وهو صبي كثير الزيغان فسافهُ زيغانهُ الى قتل احدى قريباتي . وحديث الأمر انهُ كان لنا بين بيتنا وبيت عبد الله بلوطة جاءتها مرّة الصغيرة ياسمين ابنة عمّ أبي ، وصعدت اليها تقطف البلوط ؛ فبصر بها سعيد فانتهرها ، فأبت النزول بحجة ان البلوطة مُلك عمها ، فكان انهُ أسرع الى البيت وأتى بالبندقية المحشوّة وأطلقها على الابنة فسقطت من علُ لا حراك بها . . . تراوحتُ متردّداً في ايراد هذه الحكاية ، فرأيت أنّ من الوفاء بالتاريخ ايرادها على حين انها ليست غباراً على حياة الفقيد لصغر سنّه حينذاك . فأرسله أبوه الى مدرسة عبيه ، حيث تلقّن مبادئ العربية فقط ، ثم شرع بالمطالعة لنفسهِ بما فيهِ من الميل الى العلم . ودرّس برهة في مدرسة عين تراز للروم الكاثوليك ، ثم عقد وأبي العزيمة على غشيان بغداد للتدريس فيها ، فجاءت الانباء بانتشار الوباء فيها فانثنيا ، وارتحل سعيد الى الشام حيث درّس زماناً ، ثم هبط بيروت واشتغل عند اليسوعيين في العلوم العربية ، ونبغ وأجاد . فألّف عندهم ونقّح وصحّح طائفة من الكتب المفيدة . ولبث عندهم زماناً طويلاً ثم بعد ذلك درّس بعض السنين الصف الأول العربي في مدرسة الحكمة المارونية فأتاح لي الحظ ان اكون من بعض تلاميذه . ثم استسلم الى الراحة متنكباً منابر

التدريس دون التأليف ، فانشأ وهو منزوٍ في بيتهِ عدة تآليف ناضجة سيأتي الكلام عليها . وقد اشترى منذ عام بيتاً في « فرن الشباك » تحوطه قطعة من الرزق كان يدير زراعتها بيده . وما هي الاَّ ايام حتى ألمّت بهِ حمى في المعدة انجلت تاركة وراءها ألماً شديداً في رقبتهِ من جهة الكتفين ، فأضعف الألم المستديم جسمه وهدّ سلامة بنيانه

« من صفاتهِ وأحاديثهِ » — من صفاتهِ الرزانة والتروّي واعتزال ضوضاء العالمين والتواضع والأنس ولطف الحديث ، ومن صفاتهِ الاقتصاد ولهُ أحاديث مأثورة يضيق المجال عن سردها ولا بأس بحديث منها . حدثني مرة قال : زارني المغفور له الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وكان الانكليز قد احتلوا مصر جديداً ، فسألتهُ عن الخطة التي ينوي انتهاجها مع المحتلين ؛ فأجاب بالرغبة في معاكستهم فأشرتُ عليهِ بموالاتهم لما هم عليهِ من بسطة البأس والسلطان فتستفيد مصر من الموالاة ولا تستفيد من المعاكسة : قال فأجابني الشيخ : أصبت واني فاعل كذلك

« علومه » — يمتاز صاحب الترجمة بعلوم الصرف والنحو وعلوم المعاني والبيان والبديع وبعلم اللغة وأساليب الانشاء ، وهو في كل ذلك صاحب الإمامة يؤخذ بقوله ويُركن اليهِ وله في ذلك التآليف الجمة الجليلة التي طافت المدارس وتصدّرت في مكاتب الأدباء ، ولم يكن يعرف من اللغات أولاً سوى العربية وقد لجّ بهِ الشوق الى تفهُّم الافرنسية وهو أبيض الناصية ، فأكبَّ عليها ودرسها درساً يصل بهِ الى الترجمة منها ، فوصل ، وترجم قوانين يوستينيانوس ونشرها في مجلة المقتطف . وقد نظم

الشعر رغماً عن عدم انطباعه عليهِ فأجاد في بعضهِ من ذلك أبيات كتبها تحت صورته مع عائلتهِ امرأته وبناته الثلاث قال :

رسمٌ يمثّلنـا والشملُ مجتمعٌ والعيشُ صافٍ وظلُّ الخير ممدودُ
وهذه الحـالُ أقصى ما يؤمّلهُ حيٌّ من الخلق بالآفات مقصودُ
لكنَّ فرقتنا لا بدَّ واقعةٌ يوماً فيُفصلُ عن أثمـارهِ العودُ
فنسأل الله جمعاً بعـد تفرقةٍ في جنّةٍ وجميلُ العَود محمودُ

وقد ازدادت هذه الأبيات اليوم مسحة من الجمال لانفراط الشمل بموت اثنتين من بناتهِ الصبيّات وبلحاقه بهما

ومن نظمهِ قوله من قصيدة وداعٍ

وداع لذيذاتِ الحيـاة وداعكم فليسَ على شاكي التفرّق من عَتْب
يجرّعنـا هذا البعـاد مرارة على قدر ما ذقنا الحلاوة في القربِ

« مؤلفاته والحكم عليها » — ان الدهر الآتي حكمٌ عدل في كتابات المنشئين ، يطرح الغث ويبقي السمين ، فقد ينال زيد مثلاً في الكتابة والنظم صيتاً طنّانا لجاهٍ عريض فيهِ أو لمال كثير عنده ، لا لبلاغةٍ في كلامه ؛ حتى اذا مات ومات جيله ، أنصف الدهر في كتاباته العارية من سياج الجاه والمال ، فتناولها ومحاهـا . وقد يموت كاتب فقير فتبقى كتاباته على هام الدهر لبلاغتها وعلوّ طبقتها . أما سعيدٌ رحمهُ الله فأرى ان كتاباته من الخالدات . ومؤلفاته عديدة منها كتاب (الشهاب الثاقب في صناعة الكاتب) وهو عبـارة عن رسائل في جميـع أبواب المراسلة ، انشأها والنفوس الى مثلها ظمأى ، ولم يتحدّ فيها طريقة التصنّع

والتكلّف والسجع والكلام الكثير في المعنى القليل ، بل تحدّى الانشاء المرسل من السهل الممتنع . وله رسالة انتقد بها كتاب النحو الذي وضعهُ يومذاك المرحوم احمد فارس الشدياق . وهو المصحح كتاب بحث المطالب في النحو ومعلّق حواشيه ، والمصحح ديوان المطران جرمانوس فرحات وشارحه . ولم أرَ الشيخ مجيداً في تصحيح هذا الديوان لما فيهِ من المغالط الشعرية المتعددة والجوازات القبيحة

ومن مؤلفاتهِ كتاب « المعين » للتلميذ وللمعلم وقد أحسن في وضع هذا الكتاب لما فيهِ من الطرق الرحيبة الموصلة الى مواطن الانشاء ؛ وقد اردف (المعين) بكتاب (نجدة اليراع) وهو كتاب جمع فيهِ الجمل المترادفة في وصف أمر أو شيء . وله كتاب (حدائق المنثور والمنظوم) وهو مجموعة من أطايب الشعر والنثر على نحو ما هو عليهِ مجاني الأدب وهو جزءان . ومن قلمهِ تصحيح أغلاط كتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني ، وتصحيح ديوان ابن معتوق ، وترجمة قوانين يوستينيانوس ، ومقالات جمة من أحاسن الكتابات في المقتطف خصوصاً وسواه من المجلاّت والجرائد . وفي آخر المدة وضع كتاب (مطالع الأضواء في مناهج الكتّاب والشعراء) وهو كتاب مدرسيّ في علوم المعاني والبيان والبديع ، وقد تبسّط في هذه العلوم تبسُّطاً يكاد يكون مملاًّ . غير انهُ فاق على سواه من المؤلفين في هذا الفن بأنهُ أردف هذه العلوم الثلاثة بقوانين الانشاء من مثل الذوق وانتقاء اللفظ والمعنى والمطالعة والتمرين الى غير ذلك من الأبواب الجميلة التي لم يطرقها مؤلف عربي سواه ، فجاء

كتاباً جليلاً للتعليم في المدارس ، وأردفه بكتاب في علم الخطاب ولم اقرأ بعد هذا الكتاب

يتضح مما تقدّم أن جميع الكتب التي ألّفها صاحب الترجمة وصحبها مدرسية يستغني عنها المترسّلون في العلوم العربية الأ معجمه المشهور واسمه « أقرب الموارد » . وهو حتى الآن أكمل معجمٍ يصل بناشد الألفاظ الى ضالتهِ عن أقرب سبيل وفي أسرع آن ، على حين اننا في عصر أصبحت بهِ الكتاب تتخطفُ الأوقات . وقد قرّظه له أجمل تقريظ صاحب السعادة عبد الله باشا فكري وزير المعارف في مصر سابقاً والمغفور له العلامة الشيخ محمد عبده

هذه حياة الشرتوني . فهي حافلة بالآثار العلمية الطيبة دالة على ان الرجل استعمل الزمن الذي جازه بالعمل المتواصل ، ولم يكن لسعيدٍ من نظير في ذلك الاّ المثلث الرحمات المطران يوسف الدبس الذي كان يعمل كل يوم سبع ساعات وغماً عن شيخوختهِ ومرَض بصره

وان حياة كتلك الحياة لفمينة بأن تكون مثالاً وضّاحاً لشبيبة هذا العصر، فتعلم أن العلم لا يعطينا بعضه حتى نعطيه كلنا

والآن ألقي عليك أيها الراحل الكريم كلمات الوداع الممزوجة بعواطف الاحترام ؛ وثق أن لك من سلامة بيانك ، ونصاعة برهانك ، ونقاء فصاحتك ، ومضاء بلاغتك حارساً أميناً على كتاباتك من نقد الناقدين ، وكفيلاً ضميناً على بقائها زاهيةً الى انقضاء العالمين

المحامي الزعيم

٢ — رشيد الشرتوني

ان رشيداً أخو سعيدٍ لأبيه ؛ وُلد في بلدنا شرتون سنة ١٨٦٤ ، وأفضى الى ربهِ سنة ١٩٠٧ أي في روعة العمر ومعمان النشاط اذ لم يكن له من العمر سوى ثلاث وأربعين سنة

تلقّن مبادىء العربيــة والافرنسية في مدرسة مار عبده هرهريًّا ، ودرّس حيناً في مدرسة عين تراز ومدرسة عيطوره ، ثم انقطع لخدمة العلم عند اليسوعيين في بيروت ، فكان يدرّس صف الخطابة في كليتهم ، ويحرّر جريدة « البشير » وكان في خلال ذلك يؤلف ويترجم ويصحح الكتب المفيدة ، حتى كانت أواخر سنة ١٩٠٥ ، فهبط مصر لخدمة العلم

فقضى فيها سنة جاء بعدها الاصطياف في لبنان ، فأدركه المرض في منتصف الليل ، وفي صباح اليوم أجرى له الدكتور هاش عملية جراحية فلم تنجح ، وقضى بين قلوب تتفطّر ودموع تتقطّر . وكان جميل الصورة غضّ الإهاب كثير اللطف جميل العشرة وفير المحبة لمسقط رأسهِ وأوطانه ، وكان كأخيه نشيطاً ، يصرف أوقاته بالعمل . فانهُ مع انصرافهِ الى التدريس والصحافة طول حياته ، تمكّن من تأليف بعض الكتب ، ولو أمدَّ الله بحياته ، لكان من اكبر خدمة العربية ومن أقطاب العلم والأدب ، وله فضل كبير على فئة كبرى من الناشئة التي أخذت عنهُ ونهجت منهجه في طلاوة العبارة وتحدّي الذوق فيها

وكان ضليعاً في اللغة ، علاّمةً في علوم الصرف والنحو والمعاني والبديع والبيان والخطابة . وكان شديد النفرة من الكتب القديمة لهذه العلوم لما فيها من التفاصيل الفارغة التي تذهب بوقت التلميذ وتنحت من جلَدِهِ وعزمه ، فشنّ على ذلك غارةً شعواء وشمّر عن ساعد الكدّ لتأليف سلسلة كتبٍ في العلوم المذكورة على السياق الافرنسي . فوضع للصرف وللنحو سلاسل هي اليوم عمدة التدريس في المدارس الكبرى والصغرى في سوريا ، ولعلها في مصر أيضاً ، ولو استطالت حياته لأتى بالكتب المنوية لعلوم البيان على الطراز المُعلَم ، وهذه السلاسل المذكورة خير ما ألف ويؤلف النحاة للتدريس

ومن تأليفه كتاب المراسلات نحا فيهِ نحو اخيهِ سعيد في انشاء الرسائل المتنوّعة ، ولكنهُ دون كتاب أخيهِ حجماً وجمالاً . اما الكتب

التي ترجمها عن الافرنسية فكثيرة جداً منها تاريخ لبنان القديم ، ورواية بحيرة قدس . وهو الذي صحح ونشر الكتب التاريخية التي وضعها مؤرخ عصره المغفور له البطريرك اسطفان الدويهي ؛ وله كتاب (تمرين الطلاَّب) وهو مجموع تمارين لابناء التحصيل في الصرف والنحو وقد شاع استعمال هذا الكتاب لكثرة فوائده ، وله كتاب في المنطق لم ينشره

وقد أفاضت صحف البلاد في الكلام عنهُ بعد وفاتهِ ، وقد رثاه الصديق الأديب الشاعر احمد افندي تقي الدين بقصيدة منها :

أبنات الهديل لا تَذري　　ببكاء الرشيد مسكبا
واندبي حظّه وحظّ فتىً　　عشق الكتب واصطفى الأَرَبا
شاحذاً للرقيّ عزمته　　في بلادٍ لا تُكرِمُ الأدبا

ورثاه هذا العاجز بأبيات منها :

صُحفُ البلاد وكان مهيع هديها　　صدعت بطاحن خطبهِ تبيينا
نبأٌ تطاير في البلاد فهزَّها　　حسبتهُ ملبوساً وكان يقينا
أخذتهُ أعلامُ الجبال بصيحةٍ　　سمعت لها في الهابطات رنينا . . .
لم تزدحم من حولِ نعشك ألسنٌ　　ألفت بغير مماتك التأبينا
وتراجع الادباء عنك لأنهم　　رهبوك يا أسد العرين طعينا
خافوا سماعك ضعف قولهم وقد　　كان الكلام اذا نطقت سمينا
مسكينةٌ آلقلم الذي ايتمتهُ　　مَن سوف يرحم ذلك المسكينا

أفاض الله عليهِ سجال رحمتهِ وأحصاه بين أصحاب اليمين

(لبنان)　　محبوب الخوري الشرتوني